اللسانيات وفلسفة اللغة
بين "التأسيس والنقد"

د. الزواوي بغوره
قسم الفلسفة ، كلية الاداب،
جامعة الكويت

تعد اللسانيات بوجه عام واللسانيات البنيوية بوجه خاص، شكلا من اشكال عودة اللغة ومنعطفا اساسيا في الفلسفة المعاصرة، وذلك لما تتميز به من خصائص علمية وتطبيقات ميدانية، مكنتها من ان تصبح نموذجا علميا ومنعطفا لغويا ثالثا مقارنة بالتحليل المنطقي والتاويلي. لذا من الطبيعي بل ومن الضروري، ان يطرح سؤال العلاقة بين فلسفة اللغة بوصفها تفكيرا فلسفيا في اللغة والعلوم اللغوية المختلفة. وإذا كان من غير الممكن منهجيا تقصي جميع العلوم اللغوية، فانه من المهم ان نبين علاقة الالسنية بفلسفة اللغة وبالمنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة.

على أننا قبل أن نفصل القول في هذا الموضوع، فانه من الجدير الاشارة إلى أن هنالك من يفترض وجود "فلسفة السنية"، تقوم بتحليل مبادئ وقواعد ومناهج الألسنية، و تحتل المرتبة الثانية مقارنة بعلم الالسنية. تتضمن هذه الفلسفة الألسنية مواضيع أساسية منها على وجه الخصوص، الجانب الانطولوجي لعلم اللغة، وأسس علم اللغة، ووظيفة علم اللغة وتطوره التاريخي. كما تناقش فلسفة الألسنية، القضايا والموضوعات الخلافية بين المدارس الألسنية المختلفة، مثل أطروحات شومسكي المتعلقة بالأفكار الفطرية، وطبيعة اللغة والنحو

العام، ومشكلة النماذج الالسنية، التي تنحصر في الغالب بين نموذجين هما النموذج الجينيالوجي"Modèle généalogique " الذي يسمح بدراسة تطور النحو واللغات في التاريخ، والنموذج التوزيعي "Diffusionniste" الذي يصف اللغات، ويحلل مشكلة المنهج كما تبينه، على سبيل المثال، أعمال شومسكي القائمة على الطريقة التكوينية التحويلية في مقابل الطريقة الوصفية التزامنية. كما تقوم بتقييم النظريات اللغوية بين المدارس المختلفة، ومشكلة التفسير في الألسنية، والاختيار بين النظريات المتساوية من حيث القيمة الإجرائية، ومناقشة المبادئ المعرفية مثل البساطة والاتساق او الانسجام[1]. وسنعالج مسالة علاقة الألسنية بفلسفة اللغة وفقا للعناصر الآتية.

أولا . بين فقه اللغة والألسنية:

1. فقه اللغة:

يشكل فقه اللغة المرحلة الثانية والأساسية في دراسة اللغة بعد النحو والمنطق. ولقد بدات ابحاث فقه اللغة، انطلاقا من أعمال المدرسة الألمانية وخاصة اعمال "فريديريك فون شليجل" الذي دعا الى"النحو المقارن" في كتابه الذي صدر سنة 1808 بعنوان "عن اللغة والمعرفة عند الهنود"، وتبعه في ذلك " فرانز بوب" في سنة 1816 بكتاب عنوانه "عن نظام التعريف في السنسكريتية مقارنا بكل من اليونانية واللاتينية والفارسية والجرمانية "، حيث حدد معالم "فقه اللغة المقارن".

ومنذ هذا التاريخ توسعت الدراسات الفقهية اللغوية، وتعمقت الابحاث في اللغة السنسكريتية. فما هو مضمون هذا العلم؟ يقول الدكتور زكي مبارك ، (ذكر السينيور جويدي في محاضرته الأولى بالجامعة المصرية (7اكتوبر 1926)

ان كلمة philologie يصعب ترجمتها إلى العربية، وان لها في اللغات الغربية معنى خاصا لا يتفق عليه أصحاب العلم والأدب. فمنهم من يرى ان هذا العلم مجرد درس قواعد الصرف والنحو ونقد نصوص الآثار الأدبية، ومنهم من يرى انه ليس درس اللغة فقط ولكنه بحث عن الحياة العقلية من جميع وجوهها. واذا صح ذلك، فمن الممكن ان يدخل في دائرة "الفيلولوجي" علم اللغة وفنونها المختلفة كتاريخ اللغة ومقابلة اللغات والنحو والصرف والعروض وعلوم البلاغة وعلم الأدب في معناه الواسع، فيدخل تاريخ الآداب وتاريخ العلوم وتاريخ الأديان من حيث درس الكتب المقدسة وتأليف الكتب الدينية واللاهوتية وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الحكمة وكتب الكلام)[2].

يجسد هذا التعريف، المباحث الكبرى لفقه اللغة ويجملها في اتجاهين كبيرين، اتجاه لغوي محض يختص باللغة وفروعها كالنحو والصرف والعروض وتحقيق النصوص والمقارنة بين اللغات، واتجاه عام يتخذ من اللغة وسيلة لدراسة الحياة العقلية والفكرية والثقافية لأمة من الأمم او لشعب من الشعوب، وذلك بدراسة آدابها وفنونها وفلسفاتها وأديانها، ولعل أهم معلم من معالمها، هو التفسير الديني الذي لا يمكن ان يقوم من دون درس فقه اللغة.

ومن الناحية التاريخية، تعد المباحث الفقهية اللغوية المتصلة بالمدرسة الألمانية متزامنة مع التفسير والتأويل الديني المسيحي، وخاصة في المذهب البروتستانتي وخير مثال على ذلك هو الفيلسوف واللاهوتي الألماني شلايرماخر، وكذلك "فريدريك نيتشه" الذي يعد مثالا للفيلسوف الذي جمع بين فقه اللغة والفلسفة، فلقد (كان اول فيلسوف كبير في عصرنا قام بعملية هدم كاملة للفلسفة منطلقا من اعتبارات لغوية، نيتشه جاء الفلسفة من فقه اللغة)[3]. وذلك لأنه يرى أن الأنساق الفلسفية ـ ومنها على وجه الخصوص النسق الهيغلي ـ قد

استسلمت لإغراء اللغة وافتتنت باستقرار النحو ومثاليته. فالوجود مثلا وهو مقولة مركزية في الميتافيزيقا هو مجرد استعارة، واستعارة ميتة أخذت من النمط اللغوي. وبالتالي فان المفاهيم الفلسفية مجرد استعارات، والفلاسفة في نظره بنو المفاهيم الفلسفية كاستعارات ميتة كانت بالنسبة لهم قلاعا يختبئون فيها خوفا من الحياة.

ان المفهوم تجريد، والتجريد يعني غياب الحياة، وبالتالي فان مفهوم الوجود وهو المفهوم الأول في الفلسفة يصبح الشبح الأكبر، والفلسفة تصبح في مثل هذه الحال(مجموعة من الأشباح أو مجموعة من الاستعارات الميتة)[4]. ويكمن الحل في نظره، في استعمال استعارات حية او مجاز حي، استعارات تعكس الحياة أو إرادة القوة. وهكذا برزت من خلال فقه اللغة مشكلات الفلسفة اللغوية. الا أن فقه اللغة من الناحية العلمية، عرف تطورا جديدا تمثل في ظهور علم اللغة الحديث أو اللسانيات أو الألسنية، فما هي مساهمتها في فهم اللغة وما هي علاقتها بالمنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة؟

2 . الألسنية:

جسدت اللسانيات المرحلة الرابعة من تطور علم اللغة، بعد النحو والمنطق وفقه اللغة وفقه اللغة المقارن، ويعتبر العالم السويسري " فردينا ند دي سوسير،1857-1913" مؤسس هذا العالم الذي عرض معالمه العامة في كتابة " دروس في الألسنية العامة " سنة 1916.

إن اللغة أداة لكل ما هو دال، ولكل معرفة واضحة، ولكنها في الوقت نفسه(مجال للمعرفة، تتمتع بقوانينها وبنياتها، وشروط تواجدها)[5]. وهذا يعني أن اللغة، يمكن أن تكون موضوع علم قائم بذاته. من هنا فان موضوع الدراسة

الألسنية الوحيد والحقيقي هو اللغة التي ينظر إليها كواقع بذاته، ويبحث فيه لذاته، وإن كان من الممكن دراسة اللغة في علاقاتها بالعلوم الأخرى، ودورها في المجتمع وعلاقتها بالثقافة والفكر.

وإذا كان موضوع الألسنة هو اللغة، فإن هدفها كما يقول "دي سو سير" هو عدم (التصرف ببنية اللغة، بل تحديد هذه البنية ووصفها).[6] ومن أجل هذا الهدف، تصطنع الألسنة منهجا في معالجة موضوعاتها، يعتمد على النظرة الكلية والتحليل التزامني، وذلك من أجل الكشف عن البنية اللغوية.

يقوم المنهج الألسني، على سلسلة من العمليات والخطوات الأساسية لدراسة موضوعه منها: ملاحظ الأحداث والمعطيات اللغوية ورصد تشابهاتها الجزئية وصياغة بعض التعليمات بهذه الأحداث المتماثلة والمتشابهة قصد إحداث بعض التعديلات في الوقائع التي تم ملاحظتها. وعلى أساسها يتم التقدم ببعض الفرضيات لتفسير هذه الأحداث، وهي مرحلة الفرض. ثم محاولة التأكد من ملائمة هذه الافتراضات للواقع اللغوي، وذلك من خلال القيام بملاحظات جديدة وهذه هي مرحلة التجربة. ثم تليها مرحلة بناء النظرية القائمة على هذه الافتراضات التي تفسر عمل اللغة بصورة عامة[7].

إن هذه الخطوات الأساسية في المنهج الألسني، ذات علاقة واضحة مع خطوات المنهج التجريبي في العلوم الطبيعية، وذلك من حيث الاعتماد على الملاحظة العامة والخاصة، ثم التقدم بفرض ومحاولة التحقق منه عن طريق التجربة، ومنه إلى صياغة قانون عام، يعادله في الألسنية، النظرية العامة. وكنتيجة لهذه الخصائص التي يتميز بها المنهج الألسني، اعتبرت الألسنية علما دقيقا قائما بذاته.

يقول "مشال زكريا" (إن هذه الخصائص التي تتصف بها الدراسة اللغوية تجعل من الألسنية علما حديثا، يعتمد على العموم والتجريد في صياغة القواعد، ويتبنى لغة كلية، قائمة على رموز متعاقبة تفسر المعطيات اللغوية وتساهم بصورة مباشرة في تعميم اللغة واختبارها)[8].

واللسانيات بهذه الشروط – الشمولية أو التعميم والتجريد واعتماد اللغة الرمزية الشكلية – تكون قد حققت الشروط العلمية، وأصبحت تصنف ضمن قائمة العلوم الدقيقة. وعلى هذا الأساس العلمي، اتخذتها العلوم الإنسانية نموذجا موجها يعتمد عليه في الدراسة والبحث، وذلك(لأنها تقدم في تطورها المستقل النموذج الفعلي لمعالجة صارمة للأمور الثقافية والاجتماعية، وثانيا لأنها تدعو إلى معالجة الأنظمة الاجتماعية نفسها كأنظمة اتصال)[9].

كما تشكل اللغة، أداة للاتصال وتبادل المعلومات، بواسطة الرسائل، وهي رسائل متعددة، منها الصوتية الشفوية والبصرية والخطية، باختصار، تحقق عملية التواصل عبر نظام من الرموز، وتعد اللغة النموذج الرمزي الأكثر وضوحا لفعل التواصل، وهذا ما تبناه على سبيل المثال "كلود ليفي ستروس" في دراساته الانتربولوجية البنيوية، حيث طبق النموذج الألسني اللغوي على المجتمعات البدائية وبين أن التواصل في تلك المجتمعات يتم من خلال تبادل النساء والمنافع والرسائل.

وتعتبر مساهمة "دي سوسير" في اللسانيات ، بمثابة القاعدة النظرية والعلمية لظهور مختلف المدارس والاتجاهات الالسنية ولذا من الضروري، في تقديرنا، ان نشير الى بعض ملامحها العامة، وأثارها في ظهور المنعطف اللغوي باسم التحليل البنيوي المنغلق داخل البنية اللغوية.

يرى "دي سوسير" ان اللغة واقع قائم بذاته، ولا تحتاج اللغة إلى أي عنصر خارجي لتحديدها، حيث عرفها بقوله(اللغة نظامSystème لا يعرف إلا نظامه الخاص به)[10]. وتعني كلمة النظام او النسق (مجموعة القضايا التي تحدد ضمن اللغة استعمال الأصوات، والصيغ والتراكيب، وأساليب التعبير النحوية والمعجمية)[11].

إن اللغة، بهذا المعنى، نظام يتألف من بنى صوتية ومعجمية، انها " ألفاظ " وتراكيب "جمل " ودلالات " معاني"، وباعتبارها نظاما قائما بذاته، ، فان هذا سيسمح بالحديث عن السنية جديدة، ذلك لأن مفهوم النظام أو النسق هو المقدمة الأولى لمفهوم البنية، الذي سيحتل مكان الصدارة، في التحليلات ألا لسنية، ضمن المدرسة البنيوية.

وبالرغم من أن دي سويسر لم يقل بالبنية، إلا أن مفهوم " النظام – النسق " يؤدي نفس المعنى والغرض الذي سيؤديه مفهوم البنية. هذا وأن التقابلات التي أقامها كانت العلامة البارزة في إنشاء المنهج البنيوي، ومن بين هذه التقابلات:

أ. اللغة – الكلام: يعتبر هذا المبدأ من أهم المبادئ التي قال بها دي سوسير، وتم تطبيقه في العلوم الإنسانية، وخاصة في الانثربولوجية والنقد الأدبي و(يعد مسؤولا إلى حد كبير عن تطور فكرة البنية ذاتها، لأن الفصل الحاسم بين التصورات الذهنية للغة والتطبيق العملي للكلام، هو الذي ساعد على إضفاء صفة النظام التجريدي المترابط على المجموعة الأولى ونماذجها التي تحتذى في العمليات الأولى)[12]. وهذا المبدأ، يعني أن للغة ماهية اجتماعية، هذه الماهية مستقلة عن وعي الفرد، ومن هنا طابعها اللاوعي، هذا الطابع الذي سبق وان كشف عنه " فرا نز بواز ". وبهذا المعنى، تصبح اللغة (تقنين اجتماعي أو

مجموعة من القواعد)[13]، في حين أن الكلام، تحقيق عيني للغة، وهو مجرد عمل فردي، لذلك فهو يتنوع بتنوع الأفراد.

و عليه، فان الكلام يرتبط باللغة، ويتحقق كنتيجة لاستعمال اللغة، وهو في هذه الحالة مظهر لغوي محدد. أما اللغة فتمثل واقعا اجتماعيا ثابتا، بينما الكلام، فعل فردي متغير. اللغة هي الجزء الاجتماعي من عملية التكلم، فهي تكمن خارج نفوذ الفرد الذي لا يستطيع، والحالة هذه، أن يوجدها أو أن يعدل فيها [14].

إن هذه الخصائص هي التي جعلت اللغة تمتاز بالطابع، اللاشعوري أواللاوعي، هذا الطابع سيركز عليه كثيرا التيار البنيوي، بحيث جعل من اللغة، قانونا للتفكير. يقول احد الباحثين (وعلى هذا فالنظام اللغوي مستترعند أفراد البيئة اللغوية في اللاوعي، ومهمة البحث اللغوي أن يستخرج تلك العناصر والعلاقات المكونة للنظام اللغوي. ولقد التقى " دي سوسير " في محاضراته 1906 – 1911 والباحث الأمريكي " بواز" 1911 ، هنا حول القول بالطابع غير الواعي للظواهر اللغوية)[15]. إن هذا اللقاء حول نقطة اللاوعي، هو ما سيستغله أعلام البنيوية في دراسة المظاهر المختلفة للثقافة الإنسانية.

ب . الدال – المدلول: إن الدال هو الترجمة الصوتية لتصور ما، في حين أن المدلول هو الجانب الذهني للدال، وتتضح وحدتهما البنيوية في إطار العلامة، ذلك أن العلامة (عبارة عن اتحاد لصورة صوتية ألا وهي " الدال "، بتمثل ذهبي أو تصور ألا وهو "المدلول" وعلى حين أن الدال يندرج تحت النظام الذهني تكون العلامة عبارة عن ذلك الكل المتآلف من دال ومدلول، وان الدلالة هي مجرد علاقة تتحقق من تآلف هذين العنصرين)[16]. ومعنى هذا أن الدال هو الجانب الصوتي والمادي من العلامة، في حين أن المدلول هو الجانب المعنوي

والذهني من العلامة، وأن اتحادهما يؤلف بنية الدلالة رغم كون العلاقة التي تربط بينهما مجرد علاقة اعتباطية " Arbitraire ".

ج . التزامن ـ التعاقب: لا أحد يجادل في أن هذا المبدأ، هو الذي ميز اللسانيات البنيوي، وجعل منها نموذجا للعلوم الإنسانية. ويعني المحور التزامني أو الأفقي، أن الدراسة تقوم على رصد العلاقات بين الأشياء المتواجدة أو المتوافقة على أساس ثابت، ليس للزمان فيه أي دخل، وهذا يؤدي إلى دراسة الظاهرة في آنيتها أو في صورتها البنيوية. أما محور التعاقب، أو الدراسة العمودية، فتكون الدراسة فيه حسب العلاقات بين الأشياء المتتابعة على أساس التغير الزمني والتاريخي.

وبهذا المعنى تكون الدراسة التزامنية دراسة وصفية، في حين أن الدراسة التعاقبية دراسة تاريخية، أي أن التزامن يترجم،(جميع المظاهر التي تتصل بأوضاع النظم اللغوية من الوجهة الوصفية). بينما يترجم المحور التعاقبي (أشكال التطور التاريخية)[17]. ومن أهم مميزات المبدأ التزامني، اعتماده على استقلالية اللغة، بالنسبة إلى الأحداث التي تنتجها، وهذا ما يجعل من دراستها دراسة أولا وصفية وثانيا ثابتة وثالثا مستقلة عن جميع الظواهر والمتغيرات. كما يسمح، بدراسة العناصر اللغوية، من حيث علاقتها بالتنظيم اللغوي. وسيشكل مبدأ العلاقة، القضية المركزية في التفكير البنيوي، ويحل محل قضية الوجود أو الكينونة، حسب رأي "غارودي"[18].

ولقد أجمل " مشال زكريا " الأسباب التي جعلت الألسنية تأخذ بالمحور التزامني بدلا من التطوري أو التعاقبي، في هذا النص(ان التنظيم اللغوي بالغ التعقيد، وبالتالي لابد من دراسته قبل دراسة تطور اللغة، بكلام آخر، لابد من معرفة اللغة كواقع قائم بذاته، قبل تطورها عبر الزمن، من هنا إقرار

"دي سوسير "بضرورة الالتزام بالدراسة الوصفية للغة، قبل القيام بغيرها من الدراسات في المجال اللغوي)[19].

ومما لا شك فيه، أن هذه الأفكار، أو بالأحرى الأسس التي قال بها دي سوسير، قد عرفت تطورا من قبل المدارس اللسانية وخاصة من قبل ما يعرف بحلقة " براغ" التي تأسست في " تشيكوسلوفاكيا " سابقا، وضمت العديد من العلماء، ينتمون إلى بلدان مختلفة كـ"روسيا" و"هولندا" و" ألمانيا "و " إنجلترا " و"فرنسا ". ولقد قام هؤلاء العلماء بصياغة مبادئهم ونشروها في المؤتمر الدولي الأول لعلماء اللغة الذي انعقد في " لاهاي " سنة 1928، بعنوان : "النصوص الأساسية لحلقة براغ".

ومن أكبر ممثلي هذه الحلقة "جاكبسون " و" تروبتسكوي "، ويعتبر هذا الأخير مؤسس " الفونولوجية Phonologie" أو علم الأصوات الحديث، ولقد جمعت أعماله في كتاب صدر سنة 1939، وذلك بعد وفاته بسنة، تحت عنوان " مبادئ الفونولوجية Principe de Phonologie "، فماذا تعني الفونولوجية وما علاقتها باللسانيات وبالبنيوية؟

إن الفونولوجية عبارة عن(مجموع الدراسات التي تبحث في تنظيمات الفونومات الخاصة باللغات المعروفة)[20]. فالشيء الجوهري في الدراسة الفونولوجية هو الصوت، ليس كعنصر معزول أو جزئي، بل في علاقته بمجموع الأصوات. لذلك فعلم الفونولوجية يختلف عن علم الفونتيكا" Phonétique "، الذي هو (مجموع الدراسات التي تعالج أصوات اللغة وكيفية النطق بها وطبيعتها الفيزيائية)[21]. ولقد ساهم هذا العلم مساهمة فاصلة في بلورة المنظور الجديد للغة.

تعتمد الفونولوجية، على جملة من المصطلحات مثل "الفونيم Phonème" و السمة الفونولوجية، والتضاد الفونولوجي. الفونيم هو كل وحدة فونولوجية لا يمكن أن تنقسم إلى وحدات فونولوجية أصغر، وتكون الوحدة الفونولوجية طرفا فونولوجيا في مقابل طرف فونولوجي آخر، وكل تقابل صوتي يستخدم في لغة بعينها للتمييز بين المعاني. ومعنى هذا أن اللغة تنظيم وظيفي أي (تنظيم قائم على الوسائل التعبيرية المستعملة بهدف إقرار غاية معينة)[22] . يقول " تروبتسكوي" (ليس بإمكان صوت لغوي أن يؤدي وظيفة تمايزية إلا بمقدار ما يكون مضادا لصوت آخر)[23]. لذا يرى، أن مفهوم الفونام، يأتي من مفهوم التقابل والتضاد في المجال الصوتي.

ولقد حصر تروبتسكوي خصائص علم الأصوات في أربعة مبادئ هي: الجانب اللاشعوري، ذلك ان علم الأصوات لا يدرس الظواهر اللغوية الشعورية، بل يعتمد على دراسة البنية اللاشعورية. كما انه لا يدرس " الحدود، او الاصوات " منفصلة، بل يدرس العلاقات القائمة بينها. وتؤلف هذه العلاقات الضرورية، من ضروب التقابل وأشكال التنظيم "نسقا" صارما ومحكما. وأخيرا فان هذا العلم، لا يسير على نهج تجريبي، انطلاقا من وقائع تم ملاحظتها، بل يسير على نهج منطقي استنباطي، انطلاقا من نموذج قد تم تركيبه، مما يسمح له بالوصول إلى قوانين عامة. يعني هذا، أن المنهج الفونولوجي يعتمد على تحليل نسق العلاقات التي تنطوي على وظيفة داخل التنظيم اللغوي لأي دال على اعتبار أن كل فونيم مركب من السمات الخاصة التي تميزه عن فونيمات النسق، والتي تمثل هويته أو وحدته الخاصة[24].

ولقد كانت حلقة براغ أول من استعملت كلمة "بنية Structure " كمفهوم جديد، وذلك سنة 1928 حيث أصبحت البنية، تعني (دراسة العلاقات

داخل لغة من اللغات)[25]. وشكلت مرجعا ونموذجا للعلوم الإنسانية، تم تطبيقه من قبل عديد العلماء، كان أولهم كلود ليفي ستروس، وفي هذا السياق يقول احد الباحثين(يشير "ليفي ستروس " إلى بحث نشره " تروبتسكوي" سنة 1933، يبين فيه الأساس النظري لمراحل التحليل بحيث تمضي: من الظواهر الواعية إلى دراسة العلاقات اللاواعية، فالنظام أو النسق، ثم القانون، ويرى " ليفي ستروس " أن علم الفونولوجية يكون بهذا، هو أول العلوم الاجتماعية التي نجحت في بيان طبيعة الظاهرة قيد البحث، وفي بلورة المنهج المناسب لها) [26].

ولقد تعززت حلقة براغ بجهود "رومان جاكبسون" الذي أسس ما يعرف في اللسانيات بنظرية وظائف اللغة، وذلك في كتابه" مدخل أو محاولات في الالسنية العامة" حيث بين ان اللغة، او الرسالة، او الخطاب، تتم من خلال عملية المرسل او الباعث والمستقبل او المتلقي، والرسالة او الخطاب، والرمز أو القانون الذي يحكم الرسالة، وان اللغة تنجز وظائف يمكن إيجازها في الوظيفة الاحالية، حيث يصف الخطاب العالم، وهي وظيفة اولية وأساسية، ركز عليه كثيرا بول ريكور في تحديده للغة[27]، وهنالك ثانيا الوظيفة التعبيرية حيث يتم التركيز على الباعث أو المرسل أو المتحدث أو الذات، وهنالك ثالثا الوظيفة الإحائية حيث يتم التركيز على المستقبل أو المتلقي أو القارئ أو المستمع، وينتظر أن يحدث الخطاب فيه سلوكا أو فعلا وهو الجانب الذي طورته نظرية أفعال الكلام وخاصة في الجانب المتعلق بالفعل التأثيري، وهنالك وظيفة رابعة وهي وظيفة ما بعد اللغة، حيث يتم التركيز على الخطاب أو الرسالة أو اللغة ذاتها، حيث تصبح اللغة ذاتها موضوعا للغة، ويدرسها علماء اللغة أو فلاسفة اللغة أو غيرهم، وهنالك الوظيفة الخامسة وهي الوظيفة الاتصالية أو الترابطية حيث تقام العلاقة مع الآخر، وهنالك أخيرا أو الوظيفة السادسة وهي الوظيفة الشعرية حيث يتم التركيز على اللغة ولكن في جوانبها

الجمالية ويتم البحث عن القوانين الخاصة باللغة الجمالية، ولقد كان لهذه النظرية أثرها البالغ على تقدم الدراسات الألسنية وعلى فهم بنية اللغة[28].

وإذا كانت حلقة براغ تشكل جانبا أساسيا من جوانب النظرية البنيوية في اللسانيات، فان المدرسة الأمريكية بزعامة شومسكي، تشكل تطويرا ونقدا للسانيات البنيوية، بل وخروجا على النموذج البنيوي، القائم على دراسة النسق اللغوي بطريقة تزامنية بعيدة عن المتغيرات التاريخية والاجتماعية.

ثانيا . شومسكي في سياق المدرسة اللغوية الأمريكية:

1 . في المدرسة الأمريكية:

لا نستطيع الحديث عن مساهمة شومسكي اللسانية، من دون الإشارة إلى أهمية المدرسة اللسانية الأمريكية سواء في مفهومها للغة أم في أثرها على نظرية شومسكي اللغوية. وتأتي أهمية المدرسة اللسانية الأمريكية من حيث تأكيدها على الجانب التوزيعي في اللغة، وهو ما بينه "سابير" و" بلومفيد "، ثم العملية النقدية التي أنجزها " شومسكي "للألسنية البنيوية، وتقديمه لنظرية جديدة في اللغة.

يعتبر "إدوارد سابير1848-1939" من تلامذة "فرانز بواز" مؤسس فقه اللغة المقارن والانثربولوجية الأمريكية، قام بدراسات ميدانية حول اللغات " الأمريكية ـ الهندية "، ومن أهم أفكاره، دعوته الى التمييز بين التنظيم اللغوي المثالي أو النموذجي وبين التنظيم المادي أو الواقع الكلامي، معتبرا أن التنظيم الحقيقي والهام في حياة اللغة هو التنظيم المثالي، وهو ما يمكن مقارنته بالتمييز الذي أقامه دي سويسر بين اللغة والكلام، او ما قال به "همبولت" وشدد عليه كسيرر، الذي أكد على الطرح الكانطي للمعرفة القبلية[29]. وحدد اللغة من

حيث أنها بنية وشكل قائم على علاقات العناصر ووظيفتها. وفرق بين المستوى التاريخي والمستوى الوصفي، وبين المستوى الفونولوجي والمورفولوجي[30].

وإذا كانت هذه الأفكار تجمعه أكثر باللسانيات البنيوية، فإن أهميته، تظهر كذلك في العلاقة التي أقامها بين اللغة والمجتمع، وذلك في إطار دراساته الانثربولوجية. يقول احد الباحثين(والواقع أن أول فيلسوف استطاع أن يشمل اللسانيات وفلسفة اللغة والحياة الاجتماعية هو " إدوارد سابير " الذي وضع الأسس الانتربولوجية لدراسة اللغة)[31].

وقد كان له الأثر الكبير في تطور الدراسات اللغوية والانسانية على حد سواء، وخاصة فيما يتعلق بالعلاقات المتبادلة بين اللغة والفكر وبين الفكر والبنية الاجتماعية، كما وضع أسس التحليل التزامني للنظام اللغوي، وهو تحليل يوازي تحليل دي سوسير أصالة وجدة.

كما بين سابير الطابع اللاوعي والاجتماعي للغة، يقول (إن اللغة التي تنتمي إلى مجتمع بشري معين والتي يتكلمها أبناء هذا المجتمع ويفكرون بواسطتها هي" المنظم L'organisateur " لتجربة هذا المجتمع، وهي تصوغ بالتالي عالمه وواقعه الحقيقي فكل لغة، بكلمة مختصرة، تنطوي على رؤية خاصة للعالم).[32] ووفقا لهذا الفهم، فإن اللغة هي القانون المنظم للحياة الاجتماعية، وتعتبر أداة للكشف عن ماهية المجتمع.

كما ساهم في بلورة المدرسة اللغوية الأمريكية "ليونارد بلومفيد1887-1949"، مؤسس النزعة التوزيعية في اللسانيات الحديثة، تأثر بالمذهب السلوكي في علم النفس، وأكد على أن(فعل الكلام مجرد سلوك له طبيعة خاصة)[33]. وأن الكلمة يجب أن تحلل بواسطة شروطها الخارجية، لذلك فهو يعارض بين آلية

اللغة والنظرة الذهنية، وتستند هذه النظرة، على القاعدة السلوكية القائمة على" المؤثر والاستجابة "وأهم مميزاتها، جمع أكبر عدد ممكن من الكلمات والمفردات، ووصف وترتيبها، والاهتمام بالسياق بدلا من الوظيفة والمعنى، وضرورة القيام بعملية(وصفية دقيقة نقتصر فيها على وصف اللغة)[34].

إن هذا الاتجاه، كما توضحه مميزاته، حاول إقامة لسانيات تصنيفية" Taxinomique "، تعد تكملة للبنيوية، وهو ما حاول احد تلامذة "بلومفيد" وهو "هاريس Harris" في كتابه " مناهج اللغويات البنيوية " سنة 1951 ان يبينه. وسيعمل شومسكي على مناقشة هذا الاتجاه ونقده.

2 . مساهمة شومسكي:

جمع العالم اللغوي الأمريكي "نعوم شومسكي 1928" بين البحث العلمي الألسني وبين الطرح الفلسفي للكثير من القضايا الفلسفية واللغوية، مع اهتمام دائم بالقضايا السياسة كالسلم العالمي والديموقراطية والعولمة. ويعد مؤسس " النظرية التوليدية والتحويلية " في اللغة، كتب العديد من الأعمال الألسنية والفلسفية منها على سبيل المثال، "التراكيب النحوية 1957" و" اللغة والفكر 1968" و"تأملات في اللغة 1975" و"دراسات في الشكل والتفسير 1977" و"اللغة ومشكلات المعرفة،1990".

و تكمن أهمية " شومسكي " بالنسبة لبحثنا، في العملية النقدية التي قام بها تجاه اللغويات البنيوية، ومحاولته تجاوزها وذلك بإقامة ألسنية توليدية تحويلية، تتماثل ومشروع "بياجي" في تأسيس بنيوية تكوينية[35]. والحقيقة أن نقده، لا يقتصر على الألسنية البنيوية بل امتد إلى النحو التقليدي أو " النحو المقارن "، إذ يرى أن الألسنية المسماة بنيوية أو النحو التقليدي لم يستطيعا تجاوز مرحلة

الملاحظة والتصنيف، وأن ما يظهر من اختلاف بين الاتجاه النحوي القديم والألسنية البنيوية مجرد اختلاف على المستوى الكمي، لذلك فإن نقطة الضعف في الألسنية البنيوية هو اقتصارها على الوصف "Description دون التفسير Explication ".

كما تكمن أهمية شومسكي، في محاولته تجاوز الثنائيات التي أقامتها اللسانيات البنيوية، وذلك باعتماده على الجملة اللغوية كأساس، باحثا في الوقت نفسه عن(جوهر اللغة في عملية الكلام التي تمثل وظيفتها وانفتاحها متحدرة من النظام إلى الحدث إلى القول، وباحثة عن البنية في الكلام)[36]. وبين ذلك في جملة من المبادئ أهمها:

أ. **الكفاية اللغوية والأداء الكلامي:** يميز شومسكي بين الكفاية اللغوية أي المعرفة الضمنية لمتكلم اللغة المثالية والعارف بقواعد لغته، وبين الأداء اللغوي أي طريقة استعماله للكفاية اللغوية بهدف التواصل. (تتوصل نظرية الكفاية اللغوية إلى اكتشاف وتنظيم القواعد الضمنية التي تمثل اللغة الكامنة ضمن الكلام العادي، في حين تتوخى نظرية الأداة الكلامي دراسة المبادئ التي يستعملها في إنتاج هذا الكلام وتفهمه)[37].

ب . **البنية السطحية والبنية العميقة:** يعتمد شومسكي على مستويين لدراسة الجمل اللغوية، ويميز بين البنية السطحية أو الظاهرة، ويتم التوصل إليها عبر تتابع الكلمات التي ينطق بها المتكلم، والبنية العميقة أو الباطنية التي تعكس المنطق الداخلي للجمل اللغوية.

ج . وظيفة اللغة: ركز شومسكي على الوظيفة الإبداعية للغة، التي ترتبط أساسا بذات المتكلم، على خلاف الألسنية البنيوية التي تهتم باللغة بعيدا

عن ذات المتكلم، فما (أصبح يمثل اليوم النقطة المركزية التي تدور حولها كل الدراسات اللغوية الحالية إنما هو المظهر الإبداعي للغة...إن الظواهر لتوحي بأن الذات المتكلمة تخترع لغتها، بوجه من الوجوه كلما عمدت إلى التعبير عن نفسها)[38]. وفي هذا تقارب كبير بينه وبين همبولت وكسيرر في تركيزهم على اللغة بوصفها طاقة إبداعية.

يرى شومسكي، أن الطفل يمتلك قدرات فطرية تساعده على تقبل المعلومات اللغوية. ولقد حاول في نظريته الألسنية، إحياء بعض المفاهيم التقليدية العائدة إلى "القواعد الفلسفية " أو الألسنية الديكارتية كما يسميها، وتتمثل تلك القواعد في البحث عن الروابط التي تقرن الأصوات بالدلالات، ومواضيع اكتساب اللغة عند الطفل والكفاية الفطرية والمبادئ الكلية وتنوع اللغات. ولا يجب، في تقديره، القيام بعملية الفصل بين علم اللغة وعلم النفس والفلسفة، ذلك أن علم اللغة قادر على أن يساهم في دراسة ومعرفة طبيعة العقل البشري، أي مجموع الملكات المعرفية التي نسميها بالعقل، وكتب في هذا الشأن عدة دراسات أهمها علم اللغة الديكارتي، واللغة والعقل، واللغة ومشكلات المعرفة.

واللغة في نظره، إذا كانت تستحق الدراسة، فلأنها هي التي تميز الإنسان ولأنها لازمة للفكر، لذا يرى أن الهدف الأساسي لعلم اللغة هو بناء نظرية استدلالية خاصة بتركيب اللغة الإنسانية، بحيث يمكن تطبيقها على جميع اللغات وليس على اللغات التي نعرفها فحسب بل وعلى جميع اللغات المحتمل معرفتها، ويرى أن هذه النظرية لا ينبغي أن تكون مغرقة في التعميم حتى يمكن تطبيقها على نظم الاتصال الأخرى أو أي نظام آخر نريد له أن يدخل في إطار

ما نطلق عليه مصطلح "اللغة " أي بعبارة أخرى، إن علم اللغة ينبغي أن يكون عاما وشاملا ومحددا للخصائص الأساسية للغة الإنسانية[39].

ولعل من أهم الخصائص التي تميز شومسكي وتبين أصالته، ما يشير إليه دائما تحت مصطلح الصورية الكلية، وهي عبارة عن مبادئ عامة تحدد صورة القواعد وشكلها وطريقة عملها من خلال النظم النحوية لعدة لغات معينة،[40].

كما دعا إلى قيام نحو عالمي أو كلي، لخصه في هذا النص(لنعرف "النحو العالمي" بأنه نظام من المبادئ والقواعد والشروط، نظام هو عبارة عن عناصر او خصائص مشتركة بالنسبة لسائر لغات العالم، نظام ليس فقط وليد الصدفة ولكنه نتاج الضرورة، أيضا ـ الضرورة الحيوية لا المنطقية بطبيعة الحال ـ وهكذا يمكن اعتبار النحو العام، تعبيرا عن ماهية اللغة الإنسانية وجوهرها، وهو لا يختلف باختلاف الإفراد، وإنما يعمل على تخصيص حالة متعلم اللغة حينما يتم هذا الأخير بنجاح. ويحتوي موضوع التعلم كبنية معرفية مكتسبة على جميع خصائص النحو العالمي، مع وجود خصائص محتملة أخرى وستكون جميع لغات العالم متطابقة مع النحو العالمي ولن يكون الفرق إلا في هذه الخصائص العارضة...هكذا نعرف النحو العالمي إذن بأنه مجموع الخصائص الصوتية والدلالية والبنائية.)[41].

لا يختلف هذا الطرح على مستوى النحو، عن الطرح الذي دافعت عنه الفلسفات العقلية في العصر الحديث، باسم لغة عالمية، وإذا لم يكتب النجاح بعد لقيام لغة العالمية، فكذلك الحال بالنسبة للنحو العالمي، إلا أن ما يجب التأكيد عليه، هو أن شومسكي، وبناء على هذه المبادئ العقلية استطاع نقد النموذج البنيوي، لأن الألسنية البنيوية تدرس المستوى السطحي للكلام، ولا

تبحث في المستوى العميق، كما لا تراعي التحول(فالألسنية البنائية لا تحاول تفسير الكلام بل لا تبحث في مسار عملية التكلم ولا في آليتها الكامنة ضمن المظهر الإبداعي في استعمال اللغة، فالمنهج الوصفي التطبيقي لا يفي بالهدف العلمي للدراسة الألسنية)[42].

ومن هنا نستطيع القول، أن الألسنية البنيوية قد بلغت في الواقع حدود قدرتها من حيث هي منهجية وصفية، ولكن ثمة قضايا ومشكلات لغوية عديدة بقيت دون أن تستطيع معالجتها بصورة وافية، ولابد والحالة هذه، من اعتماد المبادئ التفسيرية للتوصل إلى دراسة آلية اللغة وارتباطها بالفكر الإنساني.

يسمح هذا النقد الذي قدمه شومسكي للسانيات البنيوية، أن نتعرف على الموقف المعرفي للألسنية البنيوية وهو ما يظهر في عملية انشطار الجسم اللغوي وانقسامه إلى ثنائيات أو تقابلات متعددة من مثل اللغة والكلام..الخ. إن هذا الانشطار هو كما يقول احد الباحثين،(سمح ببناء خطاب حول مجال اللغة، ضيق ومحدود أساسا كموضوع للمعرفة... كما أن لعملية الانشطار هذه نتيجة مزدوجة: انغلاق أمام أي تدخل للعالم الخارجي، وتحليل ما هو داخلي على أساس نسقي .. أخيرا بإخضاعه "سوسير"المنهج التعاقبي للمنهج التزامن، ينفي المشكلة الوراثية التاريخية، مبتعدا عن التفكير في العوامل الزمنية والذاتية التي قد تؤثر على اللغة) [43].

ثالثا. بين شومسكي وميشيل فوكو:

إن ما دعانا إلى تخصيص عنصر لمناقشة موضوع اللغة بين شومسكي وفوكو، هو نقدهما لنموذج اللسانيات البنيوية، ولعل هذا يبدو غريبا بعض الشيء بالنسبة إلى أولئك الذين تعودوا تصنيف ميشيل فوكو في التيار البنيوي من دون

تمييز أو تخصيص، وسيتبين للقارئ، مدى اختلاف وجهة نظر فوكو في اللغة عن الطرح البنيوي أولا ومدى نقده كذلك لطرح شومسكي رغم اتفاقهما كما قلنا في نقد اللسانيات البنيوية ثانيا.

أكد فوكو، على أهمية اللسانيات البنيوية في تشكيل المنعطف اللغوي، ومحاولته الخروج منه عبر مفهومه للخطاب، يقول(إن أهمية الألسنية وتطبيقها على معرفة الإنسان تعيد بإلحاح لغزي طرح كينونة اللغة، التي سبق وأن رأينا مدى ارتباطها بالإشكاليات الأساسية في ثقافتنا. وهي إشكالية يزيدها ثقلا الاستعمال المتزايد للمقولات اللسانية، إذ يجب من الآن فصاعدا التساؤل عما يجب أن تكون عليه حتى تبنى هكذا ما لم يكن في ذاته مع ذلك كلاما ولا خطابا من أجل أن تتمفصل على الأشكال البحتة للمعرفة)[44]. وخص الألسنية في كتابه" الكلمات والأشياء"، وبين ان فقه اللغة والألسنية والأدب وجهود نيتشه و"مالارميه"، في العصر الحديث، بالإضافة الى تقنيات التأويل عند "ماركس" و"فرويد" و"نيتشه" والفلسفة الظواهرية والمنطق الرمزي، تؤكد العودة القوية للغة.

يقول فوكو(تدعي الأولى ـ التأويل ـ استنطاق الكلام للكشف عما يقال خلفه ومن دونه، وتدعي الثانية ـ التشكيل ـ السيطرة على أي كلام محتمل، وإخضاعه للقوانين التي تنص على ما يمكن قوله. فأضحى التأويل والتشكيل الشكلين الأولين للتحليل في عصرنا(...) لكنه لا يتصف بما يكفي من الدقة، والخيار الذي يفرضه لا يغوص إلى حد كاف في ثقافتنا(...) وفي الحقيقة يشكل هذان الفرعان تقنيتين متضايفتين، ذلك ان اللغة التي نشأت على عتبة العصر الحديث شكلت لهما الأرضية المشتركة التي انطلقت منها إمكانية وجودهما)[45].

وهو ما تلخصه عبارة المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة، التي صاغها الفيلسوف الأمريكي "ريشارد رورتي" سنة 1967[46].

اهتم فوكو بالنحو العام وجماعة "بورورويال"، هذا الإهتمام لا يعكسه فقط المكان الكبير المخصص له في كتاب "الكلمات والأشياء" واتخاذه نموذجا للنظر اللغوي، بل خصه بدراستين فرعيتين، الأولى بعنوان "النحو العام لبورورويال"،والثانية عبارة عن مقدمة لكتاب "أرنولد ولانسلو، النحو العام" وحملت عنوانا هو: النحو العام واللسانيات وذلك في سنة 1969، وهي السنة التي نشر فيها كتاب "اركيولوجية المعرفة" والخاص بالخطاب كما هو معروف.

وأول ما يمكن ملاحظته على الدراستين كونهما تشكلان دراسة واحدة، ليس فقط لأنهما تدرسان موضوعا واحدا وفترة واحدة، بل لأن الثانية مجرد إضافة للأولى تم ربطها بالألسنية الحديثة، فإذا كانت الدراسة الأولى عرض لنظرية النحو العام من خلال التمييز بين العقل والفكر والمنطق، وبين فن القول وفن التفكير، وبين نحو محايث يشكل بنية داخلية للقول ونحو وصفي للغة، وهو ما يشبه العلاقة بين الفكر والمنطق، وإذا كان النحو هو منطق القول، فإن المنطق هو نحو الفكر، وكذلك نظرية الأصوات ونظرية أشكال الكلام، وغياب نظرية العلامة وتعويضها بنظريات التمثيل، القائمة على: التمثيل ->الشيء، ثم ، الشيء->التمثيل،أو، فكرة->[موضوع = فكرة--> موضوع] وهو ما سمح للغة أن تتشكل في وحدة جديدة هي وحدة الخطاب [47].

إن هذه الأفكار نجدها في الدراسة الثانية مقرونة بالألسنية، حيث ناقش فوكو أفكارا أساسية منها:النحو العام واللسانيات، والنضج البيداغوجي لـ"بورورويال"، العقل والتعميم، العلاقة بالمنطق، نظرية العلامة، خصوصية الكلمات والأشكال، وأخيرا ما بعد "بورورويال".

يرى فوكو، أن علم اللغة الحديث أو الألسنية لا ينفصل عن النحو العام، وأنه سواء تعلق الأمر بالنحو العام أم بمحاضرات "دي سوسير" فإن الموضوع واحد من حيث المرجعية، مرجعية نظرية العلامة وتحليل اللغة، كحالة خاصة ومعقدة. وهي (نفس المحاولة لتحديد شروط عمل اللغات، ونفس الأفضلية المعطاة للتنظيم، لتنظيم اللغات، ونفس الإرادة في تحليل النحو العام على أساس النظام أو النسق)[48].

ويتساءل فوكو عن أوجه التشابه بين النحو العام واللسانيات، ويرفض إكتشاف صلة القرابة من نوع أن النحو العام مجرد حلقة في تاريخ الألسنية، وهنا يشير إلى محاولة "شومسكي" لإقامة ألسنية تحويلية، وذلك من خلال قراءة نحو "بورورويال" ، تلك المحاولة التي ترى في النحو لا النظام، وإنما الإبداع أو بتعبير آخر الطابع الإبداعي للغة.

في تقدير فوكو، ان ما لم يطوره النحو العام، هو نظرية العلامة، لانه حصر المسألة في الدال والمدلول، أوفي الإسم والمسمى،أو في التمثيل-> الشيء،والشيء-> التمثيل. وان غياب نظرية العلامة هو ما ستتكفل به الألسنية، وخاصة الألسنية البنيوية.

كما أن عمل "لانسلو - ارنولد" لا يشكل انقلابا في الدراسات الألسنية، كما يذهب إلى ذلك شومسكي، وإنما يعتبر تحولا في المعرفة النحوية وتحليلا جديدا للغة، أو على حد تعبيره "حيز إبستيمولوجي جديد". هذا الحيز هو الذي سيعرف في القرن التاسع عشر باسم النحو المقارن وفقه اللغة، وبذلك يتم إعادة النظر في نظرية العلامة والتمثيل، وعلاقة الشيء بالفكر. إنها المرحلة الثالثة في البحث اللغوي، الذي عرفه العصر الحديث.

فما هو موقف شومسكي من النحو العام؟ على عكس فوكو، يرى شومسكي أن العصر الكلاسيكي هو عصر العبقرية، حيث (وضعت قواعد العلم المعاصر)[49]. وأصول الفلسفة العقلية مع "ديكارت"، وهو الشيء الذي ينظر إليه فوكو بكثير من الريبة والنقد. ومن هذا العنصر، استخرج شومسكي نظريته اللغوية المسماة بـ"النحو التحويلي"، والقائمة على دراسة البنية العميقة والبنية السطحية، والكفاية اللغوية، والأداء اللغوي، والوظيفة الإبداعية، هذه المعالم الكبرى للنظرية أطلق عليها إسم " اللسانيات الديكارتية" في إطار النحو التحويلي، كما بينا ذلك سابقا.

ولقد شكلت المدرسة الديكارتية، وجماعة "بورورويال" خلفية تاريخية ومعرفية لهذه النظرية،يقول(لقد إتحدت الفلسفة العقلانية، التي اهتمت باللغة، بمختلف التطورات الأخرى المستقلة عن القرن السابع عشر، وأدت إلى قيام أول نظرية عامة، ذات دلالة تتعلق بالبنية اللغوية، أعني وجهة النظر العامة التي حصلت على تسمية "النحو الفلسفي" أو"النحو الكلي")[50].

يشير شومسكي إلى غياب الدراسات اللغوية حول جماعة بور رويال، وينفي عنها فكرة أن تكون "بضعة من اللغة اللاتينية"، ويرى أن المفهوم المركزي في هذا النحو هو "النظام"، كوحدة نحوية، وهو ما أشار إليه فوكو. ومن الغريب أن "شومسكي" لا يشير إلى فوكو في كتابه "اللغة والعقل" الذي صدر سنة 1972، ويعود إلى طبعة سنة 1967 ويتأسف لعدم إهتمام الباحثين- كما قلنا- بهذا العمل الرائد. ويرى أن عمل "بورورويال" تحقيق لما ذهب إليه في نظريته النحوية، وهو ما لا يوافق عليه فوكو.

وإذا كان شومسكي يرى أن (العلاقة القائمة بين نظرية بور رويال واللسانيات البنيوية والوصفية المعاصرة واضحة إلى حد ما، وتتحدد هذه

العلاقة في تحليل ما أسميته بالبنية السطحية، وفي الخصائص الصورية الظاهرة في الإشارة وفي المركبات والوحدات التي يمكن أن يتم صوغها بدقة بفضل تقنيات عملية التقطيع والتصنيف)[51]. فإن فوكو لا يصرح بذلك مشيرا إلى أن النقص النظري في ميدان العلامة والطابع الثنائي للدال والمدلول، هو الذي سمح بظهور فقه اللغة الذي أشاد به.

كما أنه إذا كان شومسكي، يوحد بين الجهد الفلسفي للنحو العام، والجهد العلمي للسانيات البنيوية، وهو ما قاله في محاضرته الأولى عن العقل واللغة بأنه (يمكننا أن نصف اللسانيات المعاصرة بأنها علم يهتم بالوقائع المفصلة، ونصف النحو الفلسفي بأنه يهتم بدوره بالتعميم المجرد، لقد آن الأوان، في نظري، لكي نوحد هذين التيارين الأساسيين ونبلور تركيبا خالصا يجمع نتائج وخلاصات كل منهما)[52].

فإن فوكو يميز ويفرق بين جهود الألسنية الحديثة وجهود النحو العام وحدوده الإبستيمولوجية. يتضح هذا في دراسته لعلاقة الألسنية بالعلوم الاجتماعية، حيث يرى أن الألسنية لا تمثل نموذجا للعلوم الإنسانية، كما هو حال البيولوجيا أو الإقتصاد التي كانت نماذج لهذه العلوم في القرن التاسع عشر، بل يرى أن الألسنية تشكل (منطلق قراءة أولية، فالأشياء من المنظور اللساني لا تدخل حيز الوجود إلا إذا كانت عناصر لمنظومة دالة. فالتحليل اللساني هو إدراك أكثر مما هو تفسير: أي أنه هو الذي يكون موضوعه نفسه)[53]. ذلك أن الألسنية مجال معرفي قائم بنفسه، حقق مجموعة من الشروط العلمية التي تصنفه مع باقي العلوم الدقيقة. لذلك فتحليلاتها تشكل معرفة قائمة وليس تأويلا لغويا مثل ما هو الحال في العلوم الإنسانية، وباعتبارها كذلك فإنها هي التي تشكل موضوعاتها.

ومع ظهور مفهوم البنية، كعلاقة ثابتة بين مجموعة من العناصر، يمكن لنا في نظر فوكو طرح العلاقة بين العلوم الإنسانية واللسانيات. وذلك لما تتمتع به البنية من خصائص معرفية، وهو ما يسمح بربط العلاقة بين العلوم الإنسانية والعلوم الشكلية والقبلية كما يقول. كما حلل مجموعة من المسائل منها: أن الألسنية في صورتها الحديثة قد بلغت مع "دي سوسير" وأتباعه وكذلك في تطبيقات "ليفي ستراوس" مستوى العلمية، بالاضافة الى تقنيات التشكيل وعلاقتها بالعلوم الإتصالية والإعلامية، وعلاقتها بالبيولوجيا والهندسة الوراثية، وهذا يعني أن الألسنية بلغت مستوى من العلمية نقلت فيه العلوم الإنسانية من المعرفة التأويلية إلى المعرفة الشكلية، وهكذا أصبحت الألسنية علما حقيقيا أو دقيقا. ولأنها حققت مستوى من العلمية، فإنها أصبحت نموذجا للعلوم الإنسانية مثل ما هو حاصل في تحليل الأساطير والتحليل الأدبي وعلم الإجتماع.

إلا انه يرى أن العلاقة بين الألسنية والعلوم الإجتماعية ليست جديدة، كما نتصور ذلك عادة، وخاصة تحت تأثير الألسنية البنيوية، بل إن هذه العلاقة تعود إلى القرن الثامن عشر، عندما صنف "دالمبير " موسوعته في شكل لغوي، كما يمكن الإشارة إلى نص "شلايجل " الذي كتبه سنة 1807، حول اللغة وحكمة الهنود حيث حلل المجتمع والدين والفلسفة عند الهنود، على أساس لغوي. كما يجب التذكير بأعمال "جورج دوميزل " الذي لم يكن لسانيا وإنما متخصصا في فقه اللغة، وتمكن من اعادة بناء وتشكيل بنية المجتمع والدين لبعض المجتمعات الهندو-أوروبية، إنطلاقا من التحليل الفيلولوجي أو الفقهي.

وعليه،استنتج فوكو، ان العلاقة ليست جديدة بين اللغة والعلوم الإجتماعية، وكذلك الإنفصال بين اللغة وباقي العلوم الإجتماعية. وإنما تعود

العلاقة إلى أيام "راسك" و"شلايجل" و"غريم" الذين أسسوا مجال فقه اللغة بخطوطه العامة ومناهج تحليلية وتطبيقات حققت نتائج قيمة[54].

على أن جديد الألسنية يتمثل، في أنها تقدم للعلوم الإجتماعية إمكانية معرفية أو إبستيمولوجية مختلفة عن تلك التي عرفتها إلى حد الآن، وهذا يعني أن الإنفصال بين اللغة والعلوم الإجتماعية كان واقعا، وما حصل الآن هو تغير في الشكل، في شكل الإنفصال، وبشكل جديد أيضا أصبحت الألسنية نموذجا للعلوم الإجتماعية .

وهكذا ظهرت إلى الوجود علاقة الألسنية البنيوية بالعلوم الإجتماعية، تلك العلاقة القائمة لا على أساس المعطيات الإمبريقية والذرية مثل (الجذور، الإعراب، الكلمات) و إنما على أساس المنظومة النسقية بين العناصر. وهنا تطرح مسألتين: الأولى متعلقة بحدود العلاقات التي يمكن للألسنية أن تقيمها مع باقي المجالات، والثانية بين هذه العلاقات والعلاقات المنطقية، أي العلاقة بين التحليل الألسني والتحليل المنطقي، وبالتالي يطرح مشكلة العلاقة بين التحليل المنطقي والواقع.

إن هذه المكانة المعرفية الجديدة للألسنية، هي التي جعلت فوكو يرفض مختلف المقاربات من نوع مقاربات "شومسكي" القائمة على التحليل الديكارتي للغة والنحو العام لجماعة "بورروريال" التي ترى في اللغة ترجمة للفكر. هذه المقاربات تتجاهل في نظر فوكو، واقعة أساسية، وهي أن اللغة شكل من أشكال التواصل، ومن هنا أقامت علاقات جديدة من نوع باعث ومستقبل ورسالة، ومجموعة من العلامات والقواعد التي تبنى عليها تلك الرسائل.

إن خصوصية التحليل الألسني في نظر فوكو، ينبع من كونه ينتمي إلى التشكيل الرياضي، وهذا نظرا لعلاقته بنظرية الإعلام والتواصل، التي تحلل مختلف القواعد والرسائل المتبادلة "Messages,Codes" وهكذا تتحدد العلاقة الجديدة بين الألسنية والعلوم الإجتماعية على أساس تحليل مجمل القواعد والرسائل الإجتماعية.

إلا أن هنالك مشكلة عادة ما يطرحها الباحثون الإجتماعيون، وهي مشكلة التاريخ مقارنة بالألسنية التي تعتمد التزامن والوصف، فإذا كان صحيحا أن الألسنية البنيوية تعتمد على التزامن، فإن هذا في نظر فوكو لا يجعلها مناهضة أو مضادة للتاريخ. إن العلاقة بين التاريخ والتزامن في الألسنية، تتحدد فقط بصورة مغايرة، شريطة أن لا نفهم من التاريخ التسلسل فقط بل التسلسل والتزامن في نفس الوقت، كما أن تحليلات الألسنيين ليست تحليلات للثبات، بل هي تحليلات لشروط التحول[55].

إن هذا يعني إن فوكو يرفض ذلك النقد المشهور الذي يعارض التحليل البنيوي بالتحليل التاريخي، وخاصة أنه يرى أن الألسنية لا تحلل اللغة فقط وإنما الخطاب. يقول فوكو(وفي الخلاصة نستطيع القول، أن الألسنية تتمفصل مع العلوم الإنسانية والإجتماعية في بنية إبيستيمولوجية خاصة، تسمح بإظهار العلاقات المنطقية النابعة من الواقع، كما تسمح أيضا بإظهار الطابع الكلي لظواهر الإتصال... وتناقش ما يمكن تسميته بالإنتاجات الخطابية" (Productions Discursives)[56].

وبهذا القول تنتمي الألسنية البنيوية إلى تقنيات التشكيل كما قلنا، وتكون البنيوية صورة من صور التشكيل الرياضي، وتجد مكانتها ضمن هذا التحليل الذي بدأ منذ القرن التاسع عشر، أي منذ انبعاث فقه اللغة والمنطق الرمزي.

وفي سنة 1967، أي سنة بعد نشر كتاب الكلمات والأشياء، ألقى محاضرة بنادي "الطاهر حداد" بتونس تحت عنوان البنيوية والتحليل الأدبي، تعرض فيها إلى مسائل النقد الأدبي الجديد وعلاقته بالبنيوية، وما يهمنا من هذا هو مفهوم فوكو للبنيوية، فما هو هذا المفهوم ؟ وما هي علاقته بموضوعنا؟

يرى فوكو أنه من الصعب إعطاء مفهوم موحد للبنيوية، وذلك لأنها تجمع إتجاهات ومباحث وطرائق مختلفة، إنها(مجمل المحاولات التي تقوم بتحليل ما يمكن تسميته بالوثيقة "Document"، بمعنى مجمل العلامات وآثار الإنسان التي تركها خلفه، والتي مازال يتركها إلى يومنا هذا)[57].وما يجب البحث عليه هو النظام أو النسق الذي يحدد هذه الوثائق كوثائق، وهو ما يمكن إيجاده في مبحث يمكن أن نسميه "Deixologie" الذي سيتم تعويضه بالاركيولوجية، وللألسنية المكانة المركزية في هذا التحليل الوثائقي، ذلك أن اللغة هي الصورة الأكثر عمومية، التي تظهر فيه الوثيقة.

ولم تفعل البنيوية، إلا الكشف عن هذا الموضوع. لذا عليها أن تختفي لتترك مكانها للتحليل "الدياكسولوجي" أو "الاركيولوجي" وهو التحليل الذي سنجده في أركيولوجيا المعرفة باسم التحليل الخطابي، القائم على وصف المنطوق ووظيفته. وهكذا وكما يقول فإننا نصل إلى نتيجة مؤداها (إن تحليل الخطاب لا يكون فقط بكلمات لسانية، كما أنه ليس حالة داخل اللغة... الخطاب شيء يتجاوز بالضرورة اللغة)[58].

وهذا يعني أن وصف المنطوقات "Enoncés" تتم بطرائق مختلفة،إلا أن السؤال الواجب طرحه في هذا السياق هو: لماذا يرى فوكو أن وصف الخطاب يتم بأدوات غير لسانية، وخاصة في صيغتها البنيوية؟إن الجواب على هذا السؤال في نظرنا يكمن في موقف فوكو من طبيعة اللغة في الألسنية البنيوية.

يقول(لا يمكن لي أن أكون بنيويا، وذلك لأن البنيوية تضع الشروط الصورية لظهور المعنى، متخذة من أسبقية اللغة نقطة إنطلاق...ومن هنا لا يمكن لي أن أكون بنيويا، وذلك لأني لا أهتم لا بالمعنى ولا بالشروط التي تظهر المعنى، ولكن بشروط تحول أو توقف المعنى، الشروط التي ينتفي فيها المعنى ليظهر شيء جديد)[59].

أي أن ما يهتم به فوكو هو مختلف الكيفيات التي يعمل بها الخطاب، في حقبة تاريخية معينة، أو بتعبير آخر، كيف يشتغل خطاب معين في مرحلة معينة، ولا يهتم بمعنى أو شكل الخطاب، الذي ما تزال البنيوية تطرحه، وعليه فانه يختلف عن الطرح البنيوي للغة، ليؤسس منظورا لغويا خاصا به، يقوم على فهم معين للغة والخطاب، يتجاوز المنعطف اللغوي في صورته البنيوية.

وبذلك يكون ميشيل فوكو ونعوم نشومسكي، قد قاما بنقد النموذج الألسني البنيوي وذلك من خلال تركيز الأول على الوظيفة والدور الذي يقوم به الخطاب في مرحلة تاريخية معينة، وتأكيد الثاني على دور المتكلم وعلى العملية الابداعية وإعادة تقييم جديد لدور النحو والدعوة إلى إقامة لسانيات تحويلية شاملة، ومع اختلافهما في تقدير مساهمة بور رويال ومكانة النحو واللسانيات، الا أنهما قد بينا بطريقة جديدة كيفية الخروج من المنعطف اللغوي كما مثلته البنيوية اللسانية.

الهوامش

1 . Sylvain Auroux ,La philosophie du langage ,Ed, PUF,Paris ,1996 , pp . 287-290.

[2] . زكي مبارك، في فقه اللغة، الدار العربية للكتاب، (د.ت)، ص 37 .

[3] . جورج زيناتي ، الموسوعة الفلسفية العربية، مركز الانماء العربي،بيروت، 1986، ص،708 .

[4] . المرجع نفسه، ص. 708 .

[5] . فردينا ند دي سويسر، دروس في الألسنية العامة، ترجمة محمد القرماوي، محمد الشاوش، محمد عجين، الدار العربية للكتاب، تونس 1982، ص.8.

6 . المرجع نفسه، ص،23. وكذلك يمكن العودة الى :

-Noël Mouloud, Langage et structure, essai de logique et de sémiotique, Ed. Payot – Paris, 1969. P.230.

[7] . مشال زكريا، الألسنية – علم اللغة الحديث – المبادئ والأعلام، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،ط 2 ، 1985 ، ص.143 .

[8] . المرجع نفسه، ص.9 .

[9] . جان كويزيني، البنيوية ،في مجلة، الفكر العربي المعاصر، تصدر عن مركز الإنماء القومي، بيروت،1980، العدد 7–6 ، ص.50.

[10] . دي سو سير، دروس في الألسنية العامة ، مرجع سبق ذكره، ص.43.

[11] . صلاح فضل،النظرية البنائية في النقد الأدبي،مكتبة الانجلو المصرية،ط 2 ، 1980، ص.29.

[12] . المرجع نفسه، ص.43.

[13] . زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، مكتبة مصر، (د.ت)، ص.48.

[14] . مشال زكريا، الألسنية – علم اللغة الحديث – المبادئ والإعلام، مرجع سبق ذكره،ص.43 .

[15] . محمود فهمي حجازي، أصوله البنيوية في علم اللغة والدراسات الأتنولوجية، في مجلة، عالم الفكر، وزارة الإعلام في الكويت، المجلد 3 ، العدد1 ،1976 .

[16] . زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، مرجع سبق ذكره، مصر، ص.49.

[17] . المرجع نفسه، ص،31.

[18] . روجيه غارودي، البنيوية، فلسفة موت الانسان، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت، 1979.

[19] . مشال زكريا، الألسنية، علم اللغة الحديث، مرجع سبق ذكره ، ص.227 .

[20] . مشال زكريا، الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، مرجع سبق ذكره، ص،209.

[21] . المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[22] . فهمي حجازي، أصول البنيوية في علم اللغة والدراسات الانتربولوجية، مرجع سبق ذكره، ص.164.

[23] . المرجع نفسه، ص.237.

[24] . زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، مرجع سبق ذكره، ص.10.

[25] . أنطوان الصباح، تطور مفهوم البنيان في اللسانيات الحديثة، في مجلة، الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت، العدد 25 ، السنة 1983 ، ص.25.

[26] . محمود فهمي حجازي، أصول البنيوية في علم اللغة والانتربولوجية ، مرجع سبق ذكره، ص.138 .

[27] . بول ريكور، فلسفة اللغة، في، العرب والفكر العالمي، العدد الثامن، خريف 1989، ص. 16.

28 . جاكبسون، رومان: العلاقة بين علم اللغة والعلوم الأخرى، ترجمة : انطوان المقدسي، في: الاتجاهات الرئيسية للبحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية،ترجمة، جماعة من الأساتذة، اليونسكو، مجلد2 ، مطبعة جامعة دمشق، 1976.

[29] . Ernst Cassirer, la philosophie des formes symbolique, 1.le langage, trad, Ole Hansen – Love et Jean Lacoste, Ed, Minuit, 1972,p.73.

[30] . J.P , Bronckart , Théories du Langage , Ed, Pierre Mardrga, 1986, p.126.

[31] . بسام بركة، اللغة والبنية الاجتماعية، في مجلة، الفكر العربي المعاصر، يصدر عن مركز الانماء القومي، بيروت، العدد 40 ، السنة 1986 ، ص.70.

[32] . المرجع نفسه، ص، 72.

[33] - Oswald Ducrot & Tzveten Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du Langage, Ed, Le seuil, Paris, 1972 , p.49.

[34]- Ibid., p,.50.

[35] . هنالك حوار مشهور بين شومسكي وبياجي حول تعلم اللغة ، انظر :

- Jean Francois Dortieu, Langage et apprentissage, le deabat Piaget/Chomesky, Auscerre, 1999.

[36] . صلاح فضل، النظرية البنائية في النقد الأدبي ، مرجع سبق ذكره ، ص.155.

[37] . مشال زكريا، الألسنية، علم اللغة الحديث، المبادئ والإعلام، مرجع سبق ذكره ، ص.262.

[38] . زكريا إبراهيم، مشكلة البنية ، مرجع سبق ذكره ، ص.79.

[39] . جون ليونز، نظرية تشومسكي اللغوية ، ترجمة د.حلمي خليل ، دار المعرفة الجامعية ، 1985 ، ص ،236.

[40] . المرجع نفسه، ص 239 .

[41] . N . Chomsky,Reflexion sur le langage , Ed, Maspero , 1977, pp. 40-41.

[42] . مشال زكريا، الألسنية ـ علم اللغة الحديث ـ المبادئ والإعلام، مرجع سبق ذكره، ص، 269-268.

[43] . جورج دورليان، بحثا عن وجهي دي سويسر، في مجلة، دراسات عربية، مجلة فكرية اقتصادية اجتماعية، تصدر شهريا عن دار الطليعة ، بيروت ، العدد4 ، السنة1983 ، ص،85.

[44]. Michel Foucault, Les mots et les choses, Ed, Gallimard, Paris,1966,p.257.

[45]. Ibid., p.310.

[46] . Richard Rorty, the linguistic turn, Chicago, the university of Chicago Press,1967.

- يتضمن هذا الكتاب أهم نصوص فلاسفة اللغة في أوربا وامريكا ومنهم: مورتس شليك، كارناب، ويزدم، كواين، ستراوسن،و بالطبع رورتي، الذي ميز بين الطرح المنطقي والمعرفي للغة.

[47] . Michel Foucault , La Grammaire générale de port-royale, In,Langage, N°7, Sept.1967,p , 15 .

[48] . Michel Foucault, Grammaire Génerale et Linguistique, In , Arnauld & LAncelot, Grammaire Générale et Raisonnée, ed. Republication Paulet, 1969, p.4.

[49] . نعوم تشومسكي، اللغة والعقل، ترجمة، إبراهيم مشروح ومصطفى خلال، مطبعة دار توبقال للطباعة والنشر. مراكش، 1993، ص،14 .

[50] . المرجع نفسه، ص، 24 .

[51] . المرجع نفسه، ص،30.

[52] . المرجع نفسه، ص،ص.34-35 .

[53] . Michel Foucault, Les mots et les choses, p.310.

[54] . Michel Foucault , Linguistique Et Sciences Sociales , In , Revue Tunisienne des Sciences Sociales , N°19, Dec.1969, p, 249.

[55] . Ibid., p.253 .

[56] . Ibid ,p,253.

[57] . Michel Foucault, Structuralisme et Analyse Litteraire,In,Les Cahiers de Tunisie, N° 149-150,1989,p. 24.

[58] . Ibid.,p .28 .

[59] . Michel Foucault , Entretien Avec Paolo Caruso, In , Conversazion , Con, Levi-Strauss , Foucault , Lacane, Traduit par ,Christian Azzerinilan , Mursia, 1969, p.03.